(٦)

الذات و الآخر في دنيا البشر

(العنصرية في عصر البيوتكنولوجيا)

"يجب علينا كأمة أن نواجه بأمانة العنصرية التي لا زالت موجودة في مجتمعنا ، ويجب أن نبعث في نفوسنا الإرادة القوية لتحقيق ذلك . إن العنصرية هي في واقع الأمر هَدْر للقدرات والعقليات والإسهامات التي يمكن لبريطانيا أن تنتفع منها" (١)

توني بلير ، رئيس وزراء بريطانيا
(فبراير ، ١٩٩٩)

تختلف نظرة الإنسان إلى نفسه وقومه من جهة ، ونحو الأقوام والجماعات الأخرى من جهة أخرى ، إختلافاً كبيراً يتضح في مفاهيم الذات والآخر ، نحن وهُمْ ، وهكذا كانت ولا تزال نظرة جميع الشعوب والجماعات بعضها إلى بعض . فعلى أساس تصور الذات للآخر تتحدد العلاقات بينهما، وتسير أحداث التاريخ في مجراها عبر المكان والزمان . فمنذ قديم الزمان حتى عصرنا هذا عبّر الإنسان في صور شتى عن إحساسه المتميز بالنسبة لجماعته وقومه وبني جنسه ، كما تعصب لعنصره وثقافته مقارنة بالآخر ، وغالباً ما تأثرت طبيعة النظرة المتبادلة بين الذات والآخر لدى الأفراد والأقوام والشعوب برؤى الإنسان الكونية (الكوزمولوجية) وموقعه منها

obeikandl.com

ودوره في الحياة . تلك الرؤى التي تبدلت عبر القرون لتنسجم وتتلاءم مع تغير واقع الحياة المجتمعية ، وتبدل القيم الثقافية لكل مكان وزمان . وعلى العموم، فمشاعر الذات واتجاهها نحو الآخر في أقوال وأفعال متعددة تبدو وكأنها ظاهرة عامة ، وربما متأصلة ، في الطبيعة البشرية .

ولقد تبلورت هذه الظاهرة في مصطلح شاع تسميته "بالعنصرية" (Racism) . وإذا بحثنا عن معاني هذا المصطلح في مصادر عديدة، نجد أن التعريفات تتعدد وتختلف وتتركز غالبا حول الانتماء العرقي ، وبأن العناصر العرقية تتفاوت نوعيا لا من حيث الشكل فحسب ، وإنما من حيث القدرة الفكرية والاجتماعية والأخلاقية (٢) . ومن ثم فهناك عناصر بشرية متفوقة وأخرى وضيعة ، وهو ما يصل بنا إلى أن هناك تحيزاً وتفرقة بين الأفراد والجماعات والشعوب حسب انتماآتهم العنصرية .

ولقد حظي موضوع الأعراق Races (أو السلالات البشرية كما يشار إليه أيضا) باهتمام بالغ في أوساط الدوائر الأنثروبولوجية ؛ وبسبب الغموض والنظرة السلبية التي ارتبطت بكلمة أعراق رفض بعض علماء الأنثروبولوجيا فكرة العرق بوصفه حقيقة علمية على الرغم من وجودها في الفكر الإنساني والواقع الاجتماعي . ومع أن بعضهم الآخر قد قبل الفكرة علميا واجتماعيا ، لكنه ارتأى أنه ربما يكون من الأفضل استخدام مصطلح "الجماعات الاثنية" Ethnic Groups بديلاً لكلمة الأعراق ، لما تحمله الكلمة الأخيرة من سلبيات كثيرة . إلا أن الأمر يستوجب مع ذلك الفصل بين "العرقية" و"الإثنية" ، ففي حين ترتكز العرقية على الجوانب الطبيعية (أي البيولوجية) فإن الإثنية ترتكز على الخصائص الثقافية بصفة أساسية (٣) . ويتفق

معظم علماء الانثروبولوجيا الطبيعية على تقسيم البشر إلي ثلاثة عناصر أو جماعات سلالية رئيسة وهي المنغوليون (Mongoloid) ، والزنوج (Negroid) ، والقوقازيون (Caucasiod) (٤) . وتنقسم هذه الجماعات الرئيسة بدورها إلى جماعات فرعية تحمل نفس خصائص الجماعات الرئيسة ولكن بدرجات متفاوتة . ولقد اعتمد تصنيف الأجناس البشرية بصفة أساسية على السمات الجسمية الخارجية للإنسان ، كالحجم والطول ، وملامح الوجه ولون البشرة وشكل الشعر ... إلخ . ولعل من بين السمات البارزة لكل واحدة من الجماعات العرقية التفاوت في خصائصها الجسمية ومدى انتشارها عبر أقطار العالم .

هذا وتأخذ العنصرية عادة شكلين أو مظهرين رئيسين وهما التحيز (Prejudice) والتمييز (Discrimination) . ويُعرف الأنثروبولوجي "بيتر فارب" التحيز (وهو الجانب الوجداني أو النفسي من العنصرية) بأنهُ "كل ما يُوجه المرء إلى أن يكون رد فعله عدائياً أو غير ودي تجاه بعض الأفراد أو الجماعات" (٥) . وينظر إلى الأفراد أو الجماعات أو الشعوب التي يُوجه ضدها التحيز عادة باعتبارها تشكل عِرقاً معينا لأنها تحمل صفات خاصة مع أن هذه الصفات قد تكون حقيقية وقد تكون متخيلة . وتحيز الذات وأساسه الزهو (Pride) أو التفاخر العنصري أو الثقافي يقابله عادة استهجان الآخر أو الإستخفاف به أو تحقيره . أما التمييز، ذلك الجانب من العنصرية الذي يتصل بتداعيات التحيز ونتائجه، فينعكس في السلوك القانوني والاقتصادي والاجتماعي تجاه المجموعات الأخرى. وغالباً ما يتخذ التمييز العنصري أشكالا متعددة كفصل الناس وعزلهم في مجموعات متباعدة بناءً على الخصائص الجسمية كلون البشرة أو ملامح الوجه ، أو الأوضاع الطبقية والطائفية مثلا ، في حين أن

لتمييز يتضمن عادة النُصرة لفئة أو فئات معينة مقابل الاضطهاد للفئات الأخرى (٦) .

ويذكر "بيتر فارب" أن كلاً من الأوروبيين والأمريكيين الشماليين تقريبا قد تقبلوا باقتناع لا شعوري في القرن التاسع عشر ما يسمي بمفهوم "التمييز العرقي العلمي" ، وهو الاعتقاد بأن الناس في الدول المتخلفة (الواقعة خارج أوروبا بالذات) يعانون من نقص وراثي في قدراتهم العقلية التي لا تمكنهم من الاختراع أو استعمال التكنولوجيا المعقدة . وقد استند هذا الشعور إلى عجز الشعوب في أفريقيا وآسيا والأمريكتين عن مقاومة التوسع والاستعمار الأوروبي الحربي والتجاري والتبشيرى . ودعّم هذا الاعتقاد أيضا ما أحرزته أوروبا في القرن التاسع عشر بالذات من طفرة علمية كبيرة وازدهار اقتصادي وتقدم صناعي بالمقارنة إلي الأزمنة السالفة وعلى مستوى العالم كله حينذاك . وفضلاً عن ذلك ، فلقد كان للارتقاء الفكري والفني في أوروبا عامة تأثيراً قوياً في ترسيخ الاعتقاد بالتميز ، وكذلك في تهيئة الأجواء للسياسيين والاقتصاديين لكي يتضافروا معاً للسيطرة على العالم وإعلان الهيمنة التي لا مُنازع لها .

ويحق للقارئ أن يتساءل عن سبب ظاهرة "العنصرية" والدافع أو الدوافع الكامنة وراءها ، إلا أنه على الرغم من المحاولات العديدة للوصول إلى أسباب التحيز والتمييز أو التعصب العرقي لدى الإنسان فليس هناك بعد تعليل يحظى بالاتفاق . فقد قدم الباحثون كثيراً من الأسباب الشخصية والدينية والمؤثرات الاجتماعية ، ولكن أياً منها لا يقدم التفسير المقبول . نذكر مثلا أن صفات الشخصية السُلطوية لدى أفراد الشعوب الانجلوساكسونية المتمثلة في احتقار الضعف والميل إلى العدوان تحدو بهم

إلى التحيز والتعصب ، إلا أن هناك شعوباً أخرى لها نفس السمات الشخصية ولكنهم ليسوا ميالين للتعصب . وهناك تفسير نفسي آخر يذكره "بيتر فارب" ومُفادهُ "أن الإحباط وعدم الرضا الذي يشعر به بعض الناس بسبب وضعهم الاجتماعي وحالتهم الاقتصادية غالباً ما يدفعهم إلى التحامل على الأقليات من السكان والتحيز ضدهم واتخاذهم كبش فداء لإحباطاتهم . ولكن هذا التفسير يفشل في تقديم السبب في أن بعض الأثرياء والمتمتعين بامتيازات اجتماعية يكونون في بعض الأحيان متعصبين بنفس القدر الذي يتعصب به المحبَطون" .

وقد اتجه بعض المفسرين إلي رد التعصب العرقي إلى بعض الأديان التي تحث معتنقيها للتحيز لمعتقداتهم والشعور بالتميز مقارنة بأتباع الديانات الأخرى ، ولكن هذا التعليل يفشل أيضاً في تفسير كون المجتمعات البروتستانتية مثلاً أكثر تعصباً من المجتمعات الكاثوليكية على الرغم من أن كليهما ينتميان للدين المسيحي (٧) . ولقد تطرق الروائي الفرنسي الجنسية – التونسي الأصل – "حسن ترايس" في كتاب حديث له بعنوان "الضحك والآخر : صورة العربي في الفكاهة الفرنسية" إلى مسألة تفسير دافع الفرنسيين النفسي في تبني صورةَ مَرضية عن العرب فنجده يردها إلى مقولة أن "النظرة إلى الذات مُحطمْة هادمة" . يقول ترايس : "نحن لا نحب النظر إلى أنفسنا وجهاً لوجه لأننا نرى عيوبنا وأخطاءنا والجوانب الدنيئة التي تخفيها المظاهر عادة عن الآخر الذي ينظر إلينا ، إلا أننا غالبا ما نرمي بنظرتنا إلى الآخر بدل النظر إلى أنفسنا مباشرة" (٨) .

ومع أن العنصرية كانت قد تبلورت واشتدت في غضون القرن التاسع عشر كما أوضح "بيتر فارب" ذلك سلفاً، إلا أنه يمكن لنا أن نرد جذور التصور الذهني للذات

والآخر لدى الأوروبيين بصفة عامة إلى الفكر اليوناني القديم الذي تمركز حول الذات في إطار فلسفات تأملية وتصورات مثالية لما يجب أن تكون عليه الحياة الاجتماعية ، وكما صورها فيلسوفهم الشهير أفلاطون في كتابه "الجمهورية" . وعلى الرغم مما قدمه الرحالة الشهير المؤرخ هيرودت في كتاب "التواريخ" من وصف تفصيلي لجوانب عديدة من حياة الشعوب الأخرى وتقاليدهم وعاداتهم ، إلى جانب سرده لوقائع الحرب التي دارت بين الفرس والإغريق إبان القرن السادس قبل الميلاد ، فإن اليونانيين لم يهتموا كثيراً بالسعي لمعرفة ما هو قائم خارج حدود بلادهم لتمركزهم حول ما يحدث في مجتمعهم (أثينا) الذي أراد له أفلاطون أن يكون النموذج المثالي لما يجب أن يكون عليه المجتمع الإنساني عامة .

وبانتقالنا إلى العصر الروماني نجد أن الرومان قد تابعوا ما طرحه اليونانيون من قضايا حول نشأة المجتمعات الإنسانية وطبيعتها إلا أنهم نبذوا الميل إلى التجريد ووضع النماذج المثالية لما يجب أن يكون عليه تنظيم الحياة الإنسانية . فلقد وجه الرومان اهتمامهم لما هو واقع ومحسوس ، ومع ذلك فقد تصوروا في أنفسهم تفوقاً وتميزاً يجعلهم يتعالون بهما على باقي الشعوب وبحكم القانون ، وأن ينظروا إليهم بوصفهم أدني منهم مرتبة بل أقرب إلى الحيوانية . ولم تقتصر هذه النظرة التحيزية والتمييزية لثقافة الذات على الحضارتين اليونانية والرومانية الغربيتين بل نجدها أيضاً في الحضارات الشرقية القديمة . نذكر على سبيل المثال اعتقاد الصينيين أنهم أفضل الخلق وأنهم في غير حاجة للآخرين ، الأمر الذي جعل ملوكهم يشيدون سور الصين العظيم حتى لا تُدنّسْ أرضهم أقدام الغرباء .

وأياً كان الأمر ، فالدارس لتاريخ العنصرية عند الشعوب في الشرق والغرب على حد سواء يجد أنها مع وجودها منذ القدم إلا إنها قد بدأت تتبلور بشكل واضح ومؤثر في العقلية الأوروبية بصفة خاصة منذ العصور الوسطى إلى أن ترسخت في القرن التاسع عشر ، واستمرت حتى عصرنا الحالي ، حيث تشعبت واتخذت مشاعر وسلوكيات متعددة إلى حد أن أصبحت تمثل وجهاً قبيحاً للإنسانية حيث نشب بسببها الصراع والاقتتال بين الشعوب والجماعات ولفترات طويلة ؛ الأمر الذي حدا بمنظمة اليونسكو ، وهي إحدى هيئات الأمم المتحدة المعنية بشئون التعليم والثقافة ، أن تدرس عام ١٩٥٠ هذه الظاهرة وأن تتبنى مشروعا دوليا للحد من أضرارها في إطار من التفاهم والاحترام المتبادل بين الشعوب (٩) .

وعلى أية حال فإذا نظرنا إلى حقبة العصور الوسطى في إطار مراجعتنا التاريخية الموجزة لظاهرة العنصرية نجد أن الأوروبي كان قد أخذ كلية بوجهة نظر الكنيسة حول مسألة أصل الأنواع وترتيبها كما صاغها الراهب والفيلسوف الإيطالي القديس "توماس الأكويني" St. Thomas Aquinas (١٢٢٥ - ١٢٧٤م) ٠فقد رأى الأكويني أن تركيب الكون ونظامه قائم على أساس مبدأ "التنوع وعدم المساواة" Diversity and inequality إذ جعل **اللّه** لكل مخلوق صفات مختلفة عن الآخر ، وأن نظام العمل بين هذه المخلوقات غير المتكافئة يقوم على أساس هرمي من الالتزامات المحددة والاعتمادية المطلقة . فخلقُ الكون هذا في تركيبة هرمية يتحدد فيها لكل كائن عضوي موقعه ومرتبته الخاصة قد جاء متجانسا مع تركيبة النظام الإقطاعي لمجتمع العصور الوسطي القائم على المكانة التي يتحدد بمقتضاها حقوق وواجبات كل فرد تجاه الآخر حراً كان أو عبداً ، فارساً أو قسيساً ، رجلا أو امرأة (١٠) .

أما بالنسبة للتفسير اللاهوتي المسيحي لمسألة التباين القائم بين الشعوب – وهي القضية التي شغلت الفكر الإنساني منذ القدم – فقد استند إلى نظرية "الارتداد الحضاري" ، التي لا تنفي الاعتقاد في خلق **اللّه** البديع لجميع الناس وفق ما جاء في التعاليم المسيحية ، وإنما توضح أنه قد حدث لبعض الشعوب أن انحطت وتدهورت أحوالها بسبب ما أنزله **اللّه** عليها من غضب ، فمسخ هيئتهم وشوه وجوههم عقابا لهم على أفعالهم الشريرة وممارستهم للطقوس والشعائر الشاذة والمعتقدات الضالة . أما الشعوب الأوروبية الخاضعة للكنيسة المسيحية خاصة والتي امتثلت لتعاليمها فكانت تمثل في إطار هذه النظرية أرقى أنواع البشر ، وأن حياتهم ومعتقداتهم هي الأكثر تقدماً .

وهكذا تلاقت النظرتان اليونانية والمسيحية في تأكيد استعلائهما العنصري الذي اُتخذت الديانة المسيحية غطاء له في عصور أوروبا الوسطي ، وأصبح الآخر بمقتضاه دَنِسْ إما لأنه غير يوناني أو روماني (أو غير أوروبي عامة) ، أو لأنه غير مسيحي غربي خاصة (١١) . وبقدوم عصر النهضة الذي يُوصف عادة بأنه عصر خروج أوروبا من ظلمات العصور الوسطي إلى النور ، وانفتاحها على العالم الخارجي وإدراك بعض مفكريها الحاجة إلى الفهم الصحيح لطبيعة الإنسان أينما كان ، ومن منطلق عقلاني غير لاهوتي ، فقد برزت بعض النزعات الإنسانية ممثلة في دعوات وكتابات نفر من المفكرين الفرنسيين خاصة . نذكر من بينهم "ميشيل دو مونتيني" (Michel de Montainge) (١٥٣٣– ١٥٩٢) الذي ربما كان أول من دعا ضمناً الى فكرة "النسبية الثقافية" (Cultural Relativity) التي أصبحت فيما بعد مصطلحاً أنثروبولوجياً رئيسياً ، ويُعنى به عدم الحكم على الثقافات الأخرى من المنظور الثقافي للذات وأحكامه وقيمه، بل يجب أن تحظى الثقافات الأخرى بالفهم

في إطار نظرتها للكون ونظمها ومعتقداتها . ولعلنا لا نغفل هنا أيضاً ذكر المفكر الفرنسي "جان جاك روسو" Jean Jacque Rousseau (١٧١٢-١٧٧٨) الذي استطاع في كتابه الشهير بعنوان " المتوحش النبيل " أن يخلص نفسه من التحيز لثقافته الفرنسية إلى الحد الذي نقد فيه قيم مجتمعه وأشاد بعلوّ شأن وتحضر بعض طرائق الحياة لدى عدد من الشعوب الأخرى التي كانت قد وُصفت في الكتابات الأوروبية بالوحشية أو الهمجية .

وتجدر الإشارة أنه من بين العوامل التي دعمت الفكر التحيزي الأوروبي حتى إبان عصر التنوير ما ورد عن الرحالة والمبشرين والتجار والمكتشفين الأوروبيين في حكاياتهم أو كتاباتهم التي امتزج الخيال فيها بالواقع، وامتلأت بسرد العجائب والغرائب والخرافات التي حظت باهتمام القراء (١٢) . ويمكن القول أيضاً بأن غالبية هذه الكتابات قد حرصت على تقديم صورة الآخر على النحو الذي تريد أوروبا أن يكون عليها، لا كما هي عليه في واقع الأمر أو من منظور الآخر واعتماداً على منطق ثقافته (١٣) . ومع ذلك فبالرغم مما ساد من نزعة إنسانية لدى بعض المفكرين خلال عصري النهضة والتنوير إلا أن الإنجازات التي أحرزتها العلوم الطبيعية والفلسفة والفن قد أكدت – في تصور الأوروبيين – الاعتقاد المتنامي بتفوقهم وتميزهم بفضل العلم وعقلانية التفكير . وبالرغم من الاعتقاد السائد أن البشرية جميعها يمكن لها أن تتقدم وترتقي بلا حدود في إطار نظرية التطور الأحادي للحضارة الإنسانية ، إلا أن أوروبا ستستمر – في نظرهم دوماً – رائدة لهذا التقدم، وممثلة للجنس الراقي على أساس أن معيار التقدم يتمثل أساساً في التطور العلمي والتكنولوجي والاقتصادي (١٤) .

ولنا هنا وقفة نشير فيها إلى أنه وإن كانت مقولة التقدم المضطـــرد ومراحلـه النطورية قد حلّت محل النظرية اللاهوتية للارتـداد الحضـاري، بوصفهـا تفسـيراً للتباين الحضاري بين الشـعوب إلا أن كليهما قد قاما بدور كبير في تدعيـم الفكـر الاستعماري لدى الأوروبيين عامة وتأكيد عنصريتهم . فقد أعطت مقولـة أو نظريـة "الارتداد الحضاري" للكنيسة الحق المقدس بضرورة التدخل في حيـاة الأقـوام غـير المسيحية خارج أوروبا وتبشيرها تمهيداً لإمكان ارتقائهم سلم الحضارة . أمـا فكـرة التقدم فقد قدمت لأرباب السياسة وأصحاب المنافع الاقتصاديـة المـبررات المنطقيـة لاستغلال الثروات الطبيعية التي كانت تفتقر إليها أوروبا وتحتاج لهـا فـي آلياتهـا الصناعية ، في حين كان هدفهم المُعلن هو إزالة سمة التخلف عنهم وتدريبهم على أداء واجتياز طقوس المرور إلى التقـدم واجتيازها، إلا أن التاريخ قد أوضـح لنـا غـير ذلك .

وهكذا فكما صاغت الكنيسة رؤيتها الكونية وبررت بهـا صلاحيـة وفاعليـة النظام الإقطاعي الهرمي لعصور أوروبا الوسطى باعتباره النظام الاجتماعي الملائـم وفق النظام الطبيعـي في هذا الكون اتخذت أوروبا القرن التاسع عشر مـن نظريـة عالم الحيوان البريطاني Charles Darwin " شـارلز دارون " (١٨٠٩-١٨٨٢) عـن النطور الحيوي للكائنات مرجعاً لرؤية كوزومـولوجية جديدة تتناسب مـع التركيبـة المجتمعية الجديدة لعصر الثورة الصناعية وقيمها المادية بل تساندها أيضاً (١٥) . فلقد قامت نظرية "دارون" على أساس الاعتقاد بتطور الكائنات الحية بيولوجياً وارتقائها من حالة إلى أخرى عـبر مراحل زمنية طويلة نتيجة لمحـاولات تكيفهـا مـع سلسـلة التغيرات البيئية الجذرية التي شهدتها الأزمنة المتتالية، والتي فنى من خلالهـا أنـواع عديدة من الكائنات الحية في حين تبدلت كائنات أخرى على النحو الذي يمكنهـا مـن

التكيف مع مقتضيات البيئة الجديدة . وهكـذا استمرت عمليـات التطـور الحيـوي للكائنات تسير جنباً إلي جنب مع التغير البيئي وفق قـانون الغلبـة للأقـوى والبقـاء للأصلح .

ففي مقدمة الترجمة العربية لكتاب "أصل الأنواع " لشارلز دارون" الذي صـدر عام ١٨٥٩، والذي أحدث ثورة فكرية وعلمية هائلة في الطريقة التي يفكر بها الإنسان عن نفسه وعن تاريخ العالم ومعنى الحياة وهدفها بصفة عامـة، لخـص "إسـماعيل مظهر" جوهر النظرية التطورية في هذا النص : "قام دارون بشـرح أسـس آليـات التغير التطوري ، بمفهوم "الانتخاب الطبيعي" Natural Selection ، التي تتلخص فـي أن كل الكائنات تـنتج أفراداً أكثر مما يحتمل أن يعيشوا بكميات الغذاء الموجـودة ، ولا يبقى ويتكاثر سوى الذين يتغلبون على منافسيهم إذ إن الهدف هو بقـاء النـوع . ويقع الصراع على مستويين : إما أن تموت بعض الأفراد الضعيفة وإما أن يفنى أفراد المجموعة بأكملها، بمعنى أن الكائنات التي تتزود من بقائها بقوة أكبر، أو تكون أكثر قدرة على مقاومة أفاعيل الطبيعـة تكون أكثر قابلية للبقاء ، وأعقاب نسل في صفاتها التي مكّنت لها في الحياة . ورأي "دارون" أن التطور بالانتخاب الطبيعـي لا ينطبـق على المملكة الحيوانية فحسب، ولكنه ينطبق أيضا على الجنس البشري" (١٦) .

ولكي نفهم أساسيات النظرية الداروينية ومنطلقاتها تجـدر الإشـارة أن "دارون" كان قد عاصر تحول إنجلترا من الاقتصاد الزراعي إلى النظام الصناعي الرأسـمالي، وقد كان لإنجلترا الريادة في ذلك التحول الذي عم أوروبا فيما بعد . لذلك فقد حظـت رؤية "دارون" لتطور الحياة والنظام الذي يحكم الطفرات التطورية للكائنات الحية القائم على المنافسة والصراع من أجل البقاء قبولاً وترحيباً لتوافقهـا مـع طبيعـة النظـام

الاقتصادي الجديد الذي يقوم بدوره على أساس ديناميكية تجارة السوق من عرض وطلب، ومنافسة وصراع، وربح وخسارة، الأمر الذي جعل المؤرخ الفيلسوف الألماني "أوزوالد اشبنجلر" Oswald Spengler (١٨٨٠-١٩٣٦) يرى أن " دارون " قد أخذ من طبيعة النظام الاقتصادي البريطاني الجديد ليُصوغ نظريته الحيوية في أصل الأنواع وطبيعة الحياة . فالداروينية ما هي في حقيقة الأمر – على حد قوله – إلا تطبيقاً للاقتصاد على البيولوجيا" (١٧) ، لذا فقد وجدت الطبقة البرجوازية في إنجلترا وأوروبا عامة، في كتاب "أصل الأنواع" مظلة طبيعية تحمي سلوكياتها الاقتصادية بصفة عامة بما في ذلك من تبرير المعاملة الوحشية للعمال الفقراء خاصة، وكذلك في استغلالها للأرض والناس في مستعمراتها خارج البلاد .

ونوجز القول هنا عن هذه النظرية من حيث صلتها بالفكرة العنصرية في العقلية الغربية عامة (أوروبا وأمريكا)، فنجدها قد قدمت مقولة الحتمية البيولوجية بوصفها تفسيراً للتباين الحضاري القائم بين الشعوب . ونقرأ في هذا الصدد ما انتهى إليه المؤرخ جيرترود هملفارب Gertrude Himmelfarb من دراسته المسحية للتأثيرات السياسية للنظرية الداروينية ونتائجها الاجتماعية، يقول : "لقد زكّت الداروينية – بوصفها أداة سياسية – قيم وسلوكيات المنافسة، والسلطة، والعنف وأعلّت من شأنها إلى حد يفوق العرف والأخلاقيات والدين. وبناءً على ذلك فقد أضحت كلمة الداروينية ملازمة للتعصب القومي، والامبيريالية، والعدائية الحربية، والديكتاتورية، وعبادة الأبطال، وفكرتي "السوبرمان" الغربي، والجنس الأوروبي الراقي" (١٨) .

وعلي أية حال فقد وجدت الداروينية البيولوجية لها أصداء في تطبيقاتها على المجتمع الإنساني ، ومن هنا صيغ مصطلح "الداروينية الاجتماعية" (١٩) ، ليؤكد

بدائية بعض المجتمعات مقابل تمدن أو تحضر بعضها الآخر، وإن اختلفت درجات التمدن أو التحضر، في حين يبقى المجتمع الأوروبي دوماً متميزاً على الجميع . ومع ذلك ، فقد نهضت أصوات ومواقف أنثروبولوجية ترفض فكرة الحتمية البيولوجية في تحديد مصير الشعوب والجماعات وتحديد موضعها من التقدم أو التخلف، لأن طرق التفكير وبنية العقل الإنساني وقيامه بوظائفه لدى جميع الشعوب تنبع أساساً من وحدة نفسية مشتركة بين البشر (Psychic Unity of Mankind) . فجميع صور الحضارة وجميع العقليات – كما يذكر أستاذ الفلسفة محمد عبد الرحمن مرحبا – قد تكونت ابتداءً من بنية أساسية تحتية واحدة، ومن قوانين نفسية واحدة . فالعقل – كما يقول الأنثروبولوجي الفرنسي المعروف " كلوديفي ستروس " Claude Levi – Strauss (١٩٠٨ –) – "له هوية ثابتة تلازمه في كل زمان ومكان، ولا تتأثر بتغير الأفراد والمجتمعات والعصور، وهي تعبر عن نفسها، وتترك أثارها وبصماتها في جميع نماذج الثقافة البشرية" .

ونذكر من بين أسماء الرواد الأنثروبولوجيين الذين أخذوا بهذه الفكرة وتبنوا هذا الموقف على الرغم من قبولهم من حيث المبدأ للتطور المرحلي للبشرية وبمقولة التقدم بصفة عامة ، البريطانيان "إدوارد تايلور" Edward Tylor (١٨٣٢– ١٩١٧) ، "وجيمس فريزر" James Frazer (١٨٥٤–١٩٤١) ، والأمريكي الجنسية الألماني الأصل "فرانز بواز" Franz Boas (١٨٥٨–١٩٤٢) . قد تحدد موقف هؤلاء وغيرهم ممن تبنوا مناهضة عُنصرية تحديد وضع الشعوب في سلم الترقي والتقدم على أسس جبلية (بيولوجية/وراثية) من منطلق أن عقلية الإنسان غير الأوروبي (الموصوف بالبدائية غالباً والوحشية أحياناً) لا تختلف اختلافاً جوهرياً عن عقلية الإنسان الأوروبي (المُتَمدن) . فما يتغير إنما هي تجارب الناس وأشكال المجتمع ،

وبعبارة أخرى فإن أُطر الفكر ووظائفه توجد لدى جميع الخلق، أما مضمون الفكر فهو وحده الذي يتغير .

وهكذا أحدثت نظرية "دارون" ضجة عنيفة في العالم لأنها لم تقتصر على تغلغل فكرة التطور في الفكر الأوروبي ولكنها سادته، كما ولَّدت هذه النظرية التعصب المبني على العرق. وفي عصرنا هذا، لازلنا نشهد مع ذلك قبولاً واسعاً لمبدأ التطور الحيوي بين دارسي النظرية الدارونية ونقادها على حد سواء، إلا أن الآراء بينهم تتباين حول الكيفية التي يتم بها هذا التطور أو القانون الذي يحكم عملية الانتخاب الطبيعي خاصة، وأن الطريقة التي صاغ بها "دارون" نظريته عكست في حقيقة الأمر أحوال واهتمامات النظام الصناعي الرأسمالي والطبقة البرجوازية لمجتمعه البريطاني في القرن التاسع عشر . ونظراً لأن عالم القرن العشرين ، وبما جرى فيه من أحداث متعاقبة واكتشافات متعددة وتطبيقات علمية متنوعة ، وبخاصة خلال نصفه الثاني ، يقدم وضعاً مخالفاً تماماً لأحوال عصر دارون فقد جرى البحث عن صياغة جديدة للنظرة الكوزمولوجية لهذا العصر بحيث تتفق وتتلاءم مع روحه وأحداثه وتطلعاته المستقبلية ، وبخاصة أن العالم على مشارف بداية ألفية ثالثة من تاريخه المُدون .

ولقد كان أيضاً لرفض الخطاب الأنثروبولوجي للقرن العشرين مقولة ثنائية العقل الإنساني باعتباره منقسماً الي عقل بدائي لا منطقي وآخر عقلاني متمدن (٢٠) ، أثراً كبيراً في تقويض دعائم التفسير الحيوي لسلوك البشر والثقافات الإنسانية . هذا إلي جانب دعوة هذا الخطاب الجديد للأنثروبولوجيا أيضاً أن تكون "الثقافة" وليس "البيولوجيا" هي المدخل الصحيح لفهم طبيعة التباين الحضاري بين الشعوب ،

وسرعان ما شاعت مقولة "الحتمية الثقافية" مقابل "الحتمية البيولوجية" ، ونتج عن ذلك أن احتد الجدل بين مؤيدي كل منهما وزاد حدّه وبخاصة بعد صدور كتاب "البيولوجيا الاجتماعية : التركيب الجديد" (Sociobiology:The new Synthesis) عام ١٩٧٥. وعن هذا الكتاب ، وما جاء فيه يقول مؤلفه "ولسن" E.O.Wilson ، من جامعة هارفارد الأمريكية ، وهو خبير في دراسة النمل، أن البيولوجيا الاجتماعية هي الدراسة المنظمة للأساس البيولوجي للسلوك الاجتماعي بأسره . ومن هذا المنطلق يعرض الكتاب تفسيراً بيولوجياً لمظاهر حضارية بشرية مثل الدين والأخلاق والحرب والتعاون والتنافس بل إبادة الجنس البشري، وغير ذلك. فالدعوة المحورية التي تُصر عليها البيولوجيا الاجتماعية هي أن كل مظاهر الحضارة والسلوك البشري، هي مثل الحيوانات، قد وضعت شَفرتها في الجينات، وتم تشكيلها بواسطة عملية الانتخاب الطبيعي (٢١) . فالبيولوجيا الاجتماعية ما هي إلا تفسير تبسيطي حتمي بيولوجي للوجود والسلوك البشري .

وهكذا مرة أخرى، نجد نظرية البيولوجيا الاجتماعية، مثلها في ذلك مثل الدارونية البيولوجية، قد أضفت الشرعية على حالة العصر الذي ظهرت فيه من ناحية قبول الأوضاع السائدة كتميُز الرجال على النساء أو استغلال العمال أو اضطهاد الأقليات والأجناس الأخرى مثلاً . فهي نظرية تؤكد أن البشر مربوطون ببيولوجياتهم، فتفسر بيولوجياً لماذا نفعل ما نفعله، ولماذا نسلك أحياناً سلوك "إنسان الكهوف" (٢٢) . فإذا كانت الدارونية قد استُخدمت في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين لتدعم فكرة أن المجتمع يتقدم ببقاء الأصلح في صراع تنافسي، وأن النشاط الذي يُحسن استغلال الفرص ، وإخضاع جماعة لأخرى، وإخضاع الأعراق الدنيا اعتبرت جميعها جزءاً من الطبيعة البشرية ومن قانون كلي

للبقاء، فإن البيولوجيا الاجتماعية ترى أن الذي يحدد عملية الانتخاب الطبيعي هي الشفرة الجينية للبشر، متأثرة في دعواها هذه بفكر العصر الحالي حيث التطور الهائل في مجال الهندسة الوراثية وتكنولوجيا تحسين النسل والاستنساخ (٢٣).

ولنذكر الآن بعض ما نبه إليه "فيليب كيتشر" (Philip Kitcher) أستاذ الفلسفة بجامعة كاليفورنيا (سان دياجو) عن تأثير ما أطلق عليه بالثورة الجينية الحالية Genetic Revolution وانعكاساتها على البشر، وخاصة أنها ثورة قائمة في الدوائر العلمية الغربية أساساً. يقول "كيتشر" إن الخطورة الحقيقية لهذه الثورة العلمية الجديدة تكمن فيما قد تجلبه من اضطهاد وظلم ضد الأفراد والجماعات خاصة داخل المجتمع الواحد المتعدد السلالات والثقافات كما هو الحال مثلاً في الولايات المتحدة الأمريكية . فالمعرفة المُسبقة بالتركيبة الجينية للاجنة قبل الولادة مثلاً قد ينتج عنه قرار بالإجهاض إذا تبين ضعفها أو احتمال تعرضها لبعض الأمراض أو العجز مستقبلاً . ففي الهند حالياً، وبناءً على استخدام تقنية الفحص الخاص بتحديد جنس الجنين غالباً ما ينتهي الأمر بإجهاض الإناث والإبقاء على الذكور . ويبدو أن مسألة تحسين النسل التي كانت قد تبنتها السياسات العنصرية لألمانيا النازية في ثلاثينيات القرن العشرين قد عادت مرة أخرى في نهايته تجاوباً مع تقدم نتائج البحوث الجينية وتطبيقاتها بصفة عامة، ومشروع الجينوم بصفة خاصة (٢٤) .

ويذكر "كيتشر" أن من بين الآثار السلبية للثورة الجينية الحالية هو استخدام بعض الهيئات الأهلية والحكومية على حد سواء لخريطة الأفراد الجينية فتُبعد مثلاً شركات التأمين من لا تريد التأمين عليه ، أو كأن يفقد المتقدم للعمل فرصة توظيفه وذلك استناداً إلى مدى سلامة الجينات الخاصة بهؤلاء الأفراد إلى جانب أسباب عرقية

أخرى غالباً ما تتدخل في اتخاذ القرار . ويقدر "كيتشر" أن حوالي ١٠٪ من سكان العالم قد يصعب عليهم الحصول على موافقة شركات التأمين لطلباتهم بسبب قصور أو اضطرابات جينية معينة قد تفصح عنها صحائفهم الجينية . هذه الصحائف التي قد تصبح مستقبلاً مستنداً رئيسياً يتعين تقديمه في المعاملات المختلفة، الأمر الذي لا يجعل من مشروع الجينوم عملاً علمياً فحسب بل تجارياً وسياسياً أيضاً . فكما أن هذه الثورة الجينية قد تؤدي في نهاية الأمر إلى مجتمع يقوم على أساس النسل الراقي (Eugenic Society) ، حيث يقدم فيه للأفراد خيارات متعددة يتم على أساسها اتخاذ القرار فيما يخص الزواج أو الخِلفَة مثلاً ، وغيرهما من الأوجه المتعددة لتعاملات الحياة اليومية الاجتماعية والاقتصادية، فإن الشفرة الجينية لكل فرد ستحدد له – وفق دعوى البيولوجيين الاجتماعيين – فكره ومعتقداته وسلوكه بصفة عامة ، الأمر الذي يجعل منه كائناً غير مسئول عن أفعاله لفقده الإرادة الحرة (٢٥) .

وأياً ما كان الأمر ، فالبيولوجيا الاجتماعية هي الأخرى مثلها في ذلك مثل الداروينية قد أضفت الشرعية على مجتمع طبقي، مُحنك الإدارة ، يؤمن بالتنافس ، كما أعطت سلاحاً قوياً في أيدي واضعي الأيديولوجيات ممن يحمون نظاماً اجتماعياً يتحصن للبقاء والاستمرارية بواسطة دفاع وراثي عن السوق الحرة وشرعية التنافس والربح دونما حدود . وهي أيضاً كالداروينية نَصيرة الطبقة البرجوازية ، وأنها تمثل الأسلوب الوحيد الممكن للتنظيم الاقتصادي لعالم تقل فيه الموارد ويزيد فيه الناس . فالدعوى بأن التنظيم الاجتماعي المحتوم وراثياً هو تنظيم ناتج عن الاختيار الطبيعي دعوى لها نتائج أبعد تدل على أن المجتمع الغربي مجتمع أمثل وملائم لمقتضيات العصر، الأمر الذي يجعل من التنظيم الديمقراطي الرأسمالي الغربي الراهن وضعاً مقبولاً بل ومستساغاً (٢٦) . ولعلنا نذكر في هذا المقام أن فرضية الإتساق بين

التركيب الجيني لجماعة معينة والتركيب الاقتصادي الاجتماعي لها غالباً ما يعكس وضعاً مثالياً ربما تكون قد أحدثت صدى لها في صياغة مقولة أن نظام الرأسمالية الديمقراطية الحرة (أي النظام الغربي) يشكل المحطة الأخيرة من مراحل التطور الأيديولوجي للجنس البشري، وأنه يمثل الصورة النهائية لشكل الحكومة المثلى، ومن ثم فإن هذا النظام، والذي يتميز به الغرب دون غيره (وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية)، يشكل " نهاية التاريخ " وفق عبارة "فرانسيس فوكوياما" الذي وضع كتاباً عام ١٩٩١ بهذا العنوان حول هذه المسألة (٢٧) .

وكما كان لكتاب البيولوجيا الاجتماعية لولسن وغيره من الكتابات التي دارت حوله سواء أكانت مؤيدة أم ناقدة لنظريته تأثير على مجرى الأحداث والموقف العنصري المتزايد على نطاق عالمي ، فقد جاء كتاب "المنحنى الجرسي The Bell Curve" (٢٨) الذي صدر عام ١٩٩٤ ليقدم فيه مؤلفيه الأمريكيين المتخصصين في علم النفس ذرائع جينية (أي موروثات بيولوجية) يفسران بها انخفاض متوسط نسبة الذكاء عند الأمريكيين السود، ولا شك أن ذلك يقدم دليلاً على استمرارية اقتناع بعض العلماء من تخصصات مختلفة بالحتمية البيولوجية وما يتبعها من قوانين وسلوكيات اضطهادية ضد الملونين والأقليات وغيرهم من العناصر غير الآرية في أوروبا والمجتمع الأمريكي المعاصر .

وتجدر الإشارة أيضاً أنه ليس كل الأنثروبولوجيين في أمريكا وأوروبا قد نبذوا فكرة الأساس البيولوجي للتباين بين الجماعات والشعوب . فقد بينت الدراسة التي أجريت عام ١٩٨٥ بمعرفة جامعة وسط ميتشيجان الأمريكية أن نصف العينة المختارة من الأنثروبولوجيين متمسكون بالفكرة الدارونية وما يتتبعها من انعكاسات سياسية

واجتماعية، إلا أن الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية قد أعلنت في بيان لها بعد صدور كتاب "المنحنى الجرسي" أن تقسيم الجنس البشري في إطار مجموعات عرقية تحددها الصفات البيولوجية قد ثبت أنه خطأ علمياً ولا معنى له، كما أنه لا يشكل الأساس في تفسير التباين القائم بين الجماعات أو الشعوب سواء من ناحية الذكاء أو أي سمات أخرى . وحتى إن أثبتت الدراسات وجود اختلافات في نتائج اختبارات الذكاء بين أفراد جماعات مختلفة من حيث لون البشرة أو الانتماء الإثني، فلا يُرد ذلك لعوامل وراثية وإنما يفسر في ضوء الظروف البيئية والثقافية .

ويذكر "مايكل أومي" Micheal Omi من جامعة كاليفورنيا (بيركلي) أنه وإن كان العرق حقيقة في الواقع الاجتماعي والفكر السائد لدى غالبية العامة وبعض الخاصة على حد سواء ، فهو من الناحية العلمية خرافة (٢٩) . ويؤكد "كينيث كيد" Kenneth Kidd الباحث في الشئون الوراثية بجامعة ييل Yale الأمريكية أن تركيبته الجينية الشخصية قد تتفق كثيراً مع التركيبة الجينية لأفراد صينيين أو برازيليين مثلاً، في حين أن فردين أفريقيين يعيشان في نفس القرية قد يختلفان في تركيبتهما الجينية، الأمر الذي يؤكد أنه ليس هناك هذا الشيء البيولوجي الذي يماثل بين الأفراد أو يباعد بينهم ليجعل منهم أعراقاً متباينة تتحدد عليه بطريقة سلبية ومؤذية الاتجاهات والسلوكيات والعلاقات بينهم اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً.

ويستمر الحوار والجدل حول الحتمية البيولوجية مقابل الحتمية الثقافية ، أي بين الطبيعة والثقافة دون الوصول إلى تحديد لقيمة أي منهما في تفسير التباين البشري ، إلا أن فكرة دارون التطورية البيولوجية لم تنته مطلقاً من ناحية المبدأ ، وإنما دار الفكر وتبدل حول الكيفية التي تتم بها عملية الانتخاب الطبيعي وتميز نوع على

آخر. ففي حين ركزت الداروني ـة على مبدأ التنافس والصـ ـراع اتخـذت البيولوجيـا الاجتماعية من الجينات أساساً لهذه العملية . وسواء أكانت بيولوجية القـ ـرن التاسـع عشر (دارون) أو بيولوجيـة الربع الأخير من القرن العشرين " ولسـ ـن " ، فكلاهمـا جاء متسقاً مع فكر عصره، إلا أن الربع الأخير من القرن العشرين قد شـ ـهد أيضـا إلى جانب الثورة البيولوجية ثورات أخرى في مجالات متعـ ـددة نذكـر مـن بينهـا خاصة التحول نحو اقتصاديات السوق العالمي، والطفـ ـرة الإلكتروني ـة الهائلـة فـي الاتصال والفضائيات والمعلومات . وعلى الصعيد السياسي ، تجدر الإشـ ـارة أيضـاً إلى أحداث ونتائج مهمة أبرزها : تفكيك الاتحاد السوفيتي، وتوحيد ألمانيـا، وبـروز الصراعات الإثنية والحروب الأهلية في أوروبا الشرقية . هذا فضـ ـلاً عـن ازديـاد خطورة التلوث البيئي العالمي إلى جانب مخاطر كسر احتكار امتلاك الغرب لأسـلحة الدمار الشامل .

وفي ضوء هذه المتغيرات العديدة والمتداخلة ، أضحت فكرتي "دارون" و"ولسن" في حاجة إلي تعديل، وطرح التساؤل من جديد حول طبيعة العملية (Process) التي يتم بها التطور الحضاري والمحرك لها، شريطة أن تكون متوافقة مـ ـع متطلبـات هـذا العصر الجديد الذي تتشكل ملامحه حالياً ، والذي سيتحدد على أساسه مستقبل الإنسانية في بدايات الألفية الثالثـة . فما الذي يُحدد إذن التفوق والبقـاء في مسـ ـار التطـور البشري اللامحدود؟ وجاءت الإجابة لتستمد مقولتها الجديدة من فلسفة "ألفريد هوايتهد" Alfred Whitchead (١٨٦١-١٩٤٧) (٣٠) . وتقـوم هذه الفلسفة على أساس أن كل ما هو موجود في الطبيعة له أنماط من الأنشطة تتفـاعل مـع أنمـاط أخـرى مـن الأنشطة . ويحدث في عملية التفاعل هذه إدراك كل كائن عضوي للتغيرات الحادثـة في البيئة ، وبهذا يؤخذ في الاعتبار ضرورة تغيير أنشطته ليتلاءم مـ ـع مـا يجـري

حوله من تغييرات . وبمعنى آخر ، فكل كائن عضوي يتوقع المستقبل بطريقة ما، وعلى أساس هذا التوقع عليه أن يختار أنسب الوسائل من بين عدة بدائل ليكيف بها سلوكه مع ما يتوقع حدوثه (٣١) . ويتبع ذلك أنه إذا فشل الكائن العضوي في توقع المستقبل وتكييف سلوكه طبقاً لما سيحدث فغالباً لا يتسنى له مجابهة التغيرات المفاجئة التي تحدث في أنماط الأنشطة من حوله . ولتوضيح جوهر هذه الفلسفة بصورة أخرى ، يمكن القول أن جوهر حركة الحياة تستند أساساً على مقولة "التوقع والاستجابة" (Anticipation and Response) التي هي عملية عقلية؛ وبهذا لا يحدث التطور بعيداً عن العقل أو على أساس طبيعي أو جيني بحت، بل على النقيض من ذلك ، فالتطور في هذا الطرح الجديد يحدث نتيجة توسيع العقل لمجالاته وآفاقه، فالكائنات الحية ليست إذن كائنات سلبية خاضعة كلية للانتخاب الطبيعي ، وإنما قد تم ارتقاء الإنسان بالذات نتيجة ارتباط العقل بالحياة .

فإذا كانت الحياة قد فُهمت في عصر الدارونية وفكرها باعتبارها ميكانيكية نراها الآن في عصر البيوتكنولوجيا (أي عصر الطفرة في علم الأحياء وتكنولوجيا الاتصال والمعلومات) تعني القدرة على مواصلة تحصيل المعلومات وتطويرها وحسن استخدامها ، فالبقاء لم يعد مقصوراً إذاً على الأصلح (Survival for the fittest) وفق تصور الدارونية ، وإنما أصبح البقاء في هذا العصر البيوتكنولوجي لذوي المعلومات الأفضل (Survival for the best informed) (٣٢) . فالتطور البشري من هذا المنظور يحدث إذن نتيجة التقدم المضطرد والتحسين المستمر لعملية المعلوماتية . ويوضح "كينيث ساير" Kenneth Sayer – أستاذ الفلسفة بجامعة نوتردام – أن الإنسان يتميز دون سائر المخلوقات في القدرة على الحصول على المعلومات وفي تعدد وسائل معالجتها واستخداماتها ، الأمر الذي يؤدي إلي تفوق قدرته على التكيف

مع تغيرات البيئة ، وبهذا استطاع أن يبقى ويتطور ويسيطر على الأنواع الأخرى . وعلى هذا الأساس فإن تفوق جماعة بشرية على أخرى في مجالات البيولوجيا والاتصال والمعلوماتية تؤهلها للسيطرة على الجماعات الأخرى التي تعوزها الوسائل المادية والتقنية (وليس العقلية بأية حال) لتحقيق الاختراق لاحتكار المعرفة التي غالباً ما تؤدي إلي شعور الزهو بالتفوق والهيمنة لمن يملكها .

وفي هذا الشأن فقد كان لفكرة "المعلوماتية" (بمعنى السبق في حيازة المعلومات وتطوير تقنية استخداماتها) بوصفها محوراً للتطور الحضاري للإنسان انعكاسات اقتصادية وتداعيات سياسية . فلقد شهدت تسعينيات القرن العشرين مثلاً تزايداً في دمج مؤسسات التجارية والصناعية والإعلامية بما يحقق لها مزيداً من المحصلة المعلوماتية التي تمكنها من تطوير خدماتها وزيادة قدراتها على المنافسة، الأمر الذي يضمن بقاءها مع زيادة أرباحها . وعلى الصعيد السياسي، وفي إطار التنافس بين دول الشرق والغرب، نجد أن هذا التفسير المعلوماتي لحركة التطور الحضاري ربما يوضح لنا حرص الغرب (وبخاصة الولايات المتحدة) ، على التمسك بمبدأ التمركزية العنصرية، أن يكون له دائماً السبق العلمي والتفوق التقني فضلاً عن الاستئثار بالمعرفة الدقيقة بالكون الخارجي وبأحوال العالم الحالية والمستقبلية من حيث بيئته، وموارده، وإمكانات شعوبه . وإن المتتبع لقراءة الخطاب السياسي لدول أوروبا الغربية الكبرى (وكذلك الولايات المتحدة بصفة خاصة) في الوقت الراهن ليلمس بوضوح استمرارية مقولة "التمدن" لذواتهم مقابل "عدم التحضر" للآخر .

وهكذا ، فكما أن النظرية الدارونية لم تنبع من فراغ، شأنها شأن أي نظرية علمية أخرى، لارتباطها بطبيعة العصر الذي ظهرت فيه ولتوافقها مع اهتمامات

أصحاب المصالح الاقتصادية والمنافع السياسية وأولوياتهم، نجد أيضاً أن نظرية المعلوماتية – إن صح تسميتها على هذا النحو – قد جاءت هي الأخرى عاكسة ومرتبطة بطبيعة العصر الجديد، عصر نهاية القرن العشرين وبداية الألفية الثالثة من تاريخ الإنسانية الميلادي . وأياً كانت التسميات ، فالنظريتان متشابهتان في مضمونهما العنصري ، باطناً أو ظاهراً . فإذا كانت عنصرية القرن التاسع عشر قد ارتبطت بالامبريالية الاستعمارية مدعمة بالاقتصاد الرأسمالي الصناعي، فإن عنصرية نهاية القرن العشرين قد ارتبطت بما يشار إليه في الوقت الراهن بالنظام العالمي الجديد من خلال عولمة الاقتصاد الغربي والسيطرة على المعرفة والمعلومات. ونظراً لأنه لا يسعنا المقام في هذا المقال لعرض تفاصيل النقاش الدائر حول هذا النظام الجديد أو آليات العولمة ، وحيث إنهما لا يزالان أيضاً موضع أحاديث وأحاديث لما يتضمناه من فكر وعمل سيكون لهما تأثير كبير في تشكيل عالم الغد ، نود فقط أن نشير هنا أن عولمة العالم لم تعد ذات طبيعة دينية كما كان الأمر غالباً في العالم القديم ، وإنما أضحت الآن ذات طبيعة معلوماتية . وفي كلمة ختامية لموضوع هذا المقال ، نورد الرأي السائد لدى كثير من المفكرين المناهضين لدعاوي النظام العالمي الجديد وتستر العولمة وراءه وهو "أن الامبريالية الغربية والعولمة هما وجهان لعملة واحدة هي العنصرية" (٣٣) .

مقتطفات عن العنصرية

(١)

"لقد شعرت بخيبة أمل كبيرة عندما علمت بالسلوكيات العنصرية والمشينة التي يمارسها بعض رجال الشرطة مع المواطنين والمقيمين غير البيض وبخاصة أصحاب البشرة السوداء" .

*بيل كلينتون ، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية مارس ، ١٩٩٩" .

(٢)

عنصرية الصرب *

تلقتنا وسائل الإعلام الصربية الحالية كيف نكره جيراننا مع أنه كان يربطنا بهم من قبل علاقات طيبة تتسم بالتسامح والتفاهم ، وذلك عندما كنا جميعا بوجسلافيون إبان الحكم الشيوعي . يقولون لنا أن الكروات "جبناء"، وأن المسلمين "كلاب وقتلة أطفال" ، أما الألبان فهم " فئران قذرة".

لقد أصبحت شخصاً منبوذاً في وطني ، لا يرحب بي الأصدقاء أو المعارف ، لأني أناهض العنصرية . لقد أصبحت أشعر بالاغتراب في بلدي ، ومع الأسف والحزن تعتبر الدولة من يأخذ بموقفها العنصري وطنياً ، ومن يخالفه خائنا .

* (سيراجاكوفيك Cir Jakovic ، مراسل صحفي من بلجراد . نشرت هذه العبارات بمجلة News Week ، عدد ١٢ أكتوبر ، ١٩٩٨) .

(٣)

صورة العربي *

"إذا كنت عزيزي القارئ تصاب بصداع الرأس وأنت تقرأ أشياء سلبية عن صورة العربي ، وإذا كان التهكم على هذه الصورة يحز في نفسك ويغضبك ، وإذا كنت لا ترضى برؤية العربي في وضعية دونية ، وأخيرا إذا كنت من أولئك الذين يشمئزون إذا تفوه الفرنسيون بكلمة عربي... أنصحك ، بل أتوسل إليك ألا تقرأ هذا الكتاب" .

* (من مقدمة كتاب صورة العربي في الفكاهة الفرنسية ، تأليف حسن ترايس) .

(٤)

رؤى متنوعة *

* إن اعتقاد أي شعب بتفوقه الحضاري وتفاخره بإنجازاته العلمية والتقنية يجب ألا يكون مدعاة لازدراء الآخر أو الهيمنة عليه .
(كلود ليفي ستروس ، أنثروبولجي ثقافي)

* التنوع الثقافي ظاهرة إنسانية وإبداع بشري فريد يجب الحفاظ عليه . أما العرقية فهي وحش كاسر علينا مواجهته والتخلص منه .
(بيتر فارب ، أنثروبولوجي طبيعي)

* الحياة الاجتماعية البشرية على علاقة بالبيولوجيا البشرية ، فلو كان طول الكائنات البشرية ست بوصات فحسب لما كان هناك وجود للحضارة البشرية كما نفهمها في الوقت الحاضر ، بمعنى أن الحتمية الثقافية المتطرفة هي بنفس سخافة زميلتها البيولوجية .
(ستيفن روز ، عالم بيولوجي)

الإحالات والحواشي :

(١) مقتطف من كلمة توني بلير أمام مجلس العموم البريطاني إثر نشر تقرير التحقيق في عنصرية شرطة لندن لعدم تقديم أربع شبان بيض للمحاكمة بسبب الاعتداء بالضرب حتى الموت على مواطن أسود (جريدة The Times بتاريخ ١٩٩٩/٢/٢٥) .

(٢) أوضح الأنثروبولوجي "كلود ليفي ستراوس" في حوار لَه مع "ديديه إريبون" عام ١٩٩١ أن العنصرية مذهب يتضمن الاعتقاد بوجود علاقة تبادل بين الجينات الوراثية من جهة والاستعداد الفكري والطباع الأخلاقية من جهة أخرى ، واعتماداً على ذلك يُصنف البشر إلى جماعات عرقية متباينة ، وأن الجماعة أو الجماعات العرقية المُعتقد بتفوقها يُخول لها أن تقود وتستغل العرقيات الأخرى ، وربما أبادتها أيضاً . (راجع كتاب عبداللَّه يتيم بعنوان كلود ليفي ستروس : قراءة في الفكر الانثروبولوجي المعاصر ، سلسلة المنتخب ، بيت القرآن ، البحرين ، عدد مارس ١٩٩٨ ، ص ص١٦٦-١٦٧ .

(٣) يُطلق مصطلح الإثنية Ethnicity على الصفة أو مجموعة الصفات الاجتماعية والثقافية التي تخص جماعة بشرية معينة، والجماعة الإثنية Ethnic Group هي عادة جزء من جماعة حضارية كبرى .

(٤) يضيف بعض الأنثروبولوجيين الطبيعيين سلالة رابعة تعرف باسم Australoid ، ويتصف المنغوليون بميل بشرتهم إلي اللون الأصفر ولذا يعرفون أيضاً بالجنس الأصفر . وتبدو قاماتهم بين متوسط الطول إلى القصر ، كما تتميز أعينهم بثنية جلدية وأنوفهم متوسطة العرض وشعرهم

أسود ومسترسل . ويسكن معظمهم آسيا وآسيا الوسطى وجنوب شرقها ، كما يوجدون في منطقة الإسكيمو . أما الزنوج ، أو الجنس الأسود كما يطلق عليهم ، فيتفاوت لون بشرتهم بين اللون البني إلى الأسود ، وهم إما طوال القامة أو أقزام . ومن بين صفات الرأس عند الزنوج بروز الفكين والأنف الأفطس والشعر المجعد . وموطن هؤلاء الزنوج عادة في أفريقيا وأجزاء من آسيا وأستراليا . وبالنسبة للقوقازيين المعروفين بالجنس الأبيض فمنهم الأوروبيون أصحاب البشرة البيضاء المشوبة بحمرة والعيون ذات اللون الفاتح أو الأزرق ، والشعر الأشقر غالباً . وهناك مجموعة قوقازية تعيش في جنوب حوض البحر المتوسط وأجزاء من شبه القارة الهندية ، ويتصفون بالبشرة الداكنة ، والشعر الداكن أيضاً مع تموجه .

(٥) انظر بيتر فارب بنو الإنسان . سلسلة عالم المعرفة . يوليو ١٩٨٣ ، ص ص ٢٤٣-٢٤٦ .

(٦) المرجع السابق ، وتجدر الإشارة أن النظام الهتلري العنصري الذي ساد ألمانيا في ثلاثينيات القرن العشرين ونظام التفرقة العنصرية بجنوب أفريقيا الذي ظل قائماً حتى ثمانينيات القرن العشرين يعتبرا من النماذج البشعة للنظم العنصرية عبر التاريخ الإنساني .

(٧) بيتر فارب ، مرجع سابق ، ص ص٢٤٦-٢٤٧ ونشير هنا إلى تعليق المترجم على مسألة صلة الأديان بالدعوة إلى التمركز الذاتي والتميز : "إن الإسلام يقوم على أساس المساواة بين البشر مهما كانت أعراقهم في الحقوق والواجبات (لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى) و(كلكم لآدم وآدم من تراب) (ص ٢٤٨) .

(٨) نظر "الضحك والآخر : صورة العربي في الفكاهة الفرنسية" ، تأليف حسن ترابي . مجلة العربي ، عدد مايو ١٩٩٨ ، ص (١٩٦) .

(٩) في إطار هذه الدعوة كلفت هيئة اليونسكو الأنثروبولوجي الفرنسي "كلود ليفي ستروس" أن يضع دراسة عن الثقافات الإنسانية وبخاصة ثقافات البلدان التي طالما احتقرها الغرب والتي كانت تشغل أجزاء من مستعمراتها خارج أوروبا ، والتي كان بعضها قد حصل على الاستقلال في حين ظل بعضها الآخر يناضل للحصول عليه . ولقد نتج عن هذا التكليف كتابين هما "العرق والتاريخ" (١٩٥٢)، و"العرق والثقافة" (١٩٧١) دحضا معاً فكرة العنصرية، وأكدا نسبية الثقافات وأهمية تنوعها في حركة التاريخ والإبداع الحضاري للإنسان .

(١٠)
Jeremy Rifkin .The Biotech Century . Penguin Putnam Inc . , New York,1998,P.

(١١) محمد عبد الرحمن مرحبا . فلسفة ما قبل الفلسفة. مؤسسة عز الدين للطباعة ، بيروت ١٩٦٤، ص ١٣٧ .

(١٢) تجدر الإشارة أن الرحالة من الشرق أيضاً (المسلمون وغيرهم) لم تخل كتاباتهم من التفاخر بالذات والتحيز ضد الآخر ووصفه بأوصاف لا تقل قبحاً عن مادة الرحالة الغربيين، ولمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة انظر كتابنا بعنوان "أدب الرحلات : دراسة من منظور إثنوجرافي" سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨٦ ، وكذلك كتاب عزيز العظمة بعنوان "العرب والبرابرة (المسلمون والحضارات الأخرى)" رياض الريس للكتب والنشر، لندن ، ١٩٩٦ ، ومنه

نورد هذا النص من مقدمة الكتاب : "من نافل القول أن ليس كل ما ورد في كتابات أسلافنا حول الحضارات الأخرى كان من باب القول الموضوعي . فكما سنرى امتزج الخيال بالواقع ، فاختلط جشع الوراقين ومؤلفي كتب العجائب والغرائب مع ولع الناس بالحكايات الغريبة ، كما امتزج الإخبار عن الوقائع بتلوينات لهذه الوقائع تلائم مسبقات الحضارة العربية – الإسلامية ، تبلونيات كانت من باب خداع النفس بقدر ما كانت تلائم العلاقات الحربية أو السلمية والتنابذ الأيديولوجي وغير ذلك من الأمور التي قامت بين الحضارة العربية – الإسلامية وغيرها من الحضارات" (ص ص١٢-١٣) .

(١٣) أنظر مقالنا بعنوان

European Travellers in Egypt : Representation of the host culture .

المنشور في كتاب

Paul Janet Starkey . Travellers in Egypt . I.B. Tauris,london,1998.

(١٤) كان الفلاسفة يعتقدون خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر أن البشرية تتطور باتجاه التقدم الدائم، وأن المجتمعات تنحو إلى الانتقال من حالة البساطة النسبية في تنظيمها الي حالة أكثر فأكثر تعقيداً وتمايزاً . انظر جاك لومبار ، مدخل إلى الاثنولوجيا ترجمة حسن قبيسي المركز الثقافي العربي : بيروت ، ١٩٩٧، ص٦١ .

(١٥) Jeremy Rifkin مرجع سابق ، ص ص٢٠٢-٢٠٥ .

(١٦) تشارلز دارون . أصل الأنواع . ترجمة اسماعيل مظهر، مكتبة النهضة بيروت ١٩٧٣ (ص ص٣٨-٣٩) أنظر أيضاً كتابنا بعنوان "قصة الأنثروبولوجيا" ، سلسلة عالم المعرفة ، عدد ١٩٨٦،٩٨ .

(١٧) Jeremy Rifkin ، (ص ٢٠٦) .

(١٨) المرجع نفسه ، ص ص٢٠٦-٢٠٧ .

(١٩) تُطبق الدارونية الاجتماعية فكرة الانتخاب الطبيعي على المجتمع في محاولة لتفسير الفروق في المكتبات والثروة بين الناس، ووفقاً للنظرية فإن على الأفراد والمجموعات التنافس فيما بينهم من أجل البقاء . وقد فقدت هذه النظرية معظم تأثيرها مع مطلع القرن العشرين ، ثم عاد الجدل حولها واسعاً بعد ظهور كتاب ويلسون (أنظر ٢١) .

(٢٠) تجدر الإشارة أن عالم النفس ليفي بريل Levy Bruhl (١٨٥٧-١٩١١) كان من أشهر الداعين إلى وضع حاجز بين طرق تفكير البدائيين والأوروبيين لأن الحياة العقلية عند البدائيين – في نظره – مليئة بأوجه التناقض والاضطراب ، وسلوكهم لا يستند إلى أي تفكير منطقي حتى أنه وصف عقليتهم بأنها عقلية غير منطقية أو سابقة على المنطق (Pro-Logic) ، بمعنى أن عقلية الرجل البدائي تختلف عن عقلية الرجل الحديث (الأوروبي المتمدن) لا في الدرجة فقط بل في النوع أيضاً . إلا أن "بريل" كان قد غير من موقفه العنصري هذا في كتاباته الأخيرة قبل وفاته، ونشر عنه أنه كتب في مذكرات له قوله "إن البناء المنطقي للفكر واحد في الجماعات البشرية جميعها" . انظر محمد عبد الرحمن مرحبا ، ص ص٢٢٢-٢٢٣ .

(٢١)

E.O. Wilson . Sociobiolog : The New Synthesis: Harvard university press, Cambridge,1975 .

(٢٢) أُستُمدت مادة هذا الجزء عن السوسيوبيولوجي من المرجع التالي لعدم توفر كتاب "ولسن" عند تحرير هذا العمل : ستيفن روزم، وأخرون . علم الأحياء والأيديولوجيا والطبيعة البشرية ، ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي، سلسلة عالم المعرفة عدد١٤٨، ١٩٩٠، الفصل التاسع .

(٢٣) أنظر المقال الثالث من هذا الكتاب .

(٢٤)

p Kitcher . The lives to come : The Genetic Revolution and Human Responsibilities . Simon and Schuster,1996

حول هذا الموضوع انظر أيضاً المرجع التالي :

Walter T. Anderson . Evolution Isn't what It used to Be : The Augmented Animal and the whole wired world . W.H. Freeman,1996

(ترجم إلى العربية تحت عنوان : عصر الجينات والإلكترونيات ، دار نشر سطور ، ترجمة د. أحمد مستجير) .

(٢٥) انظر Philip Kitcher .

(٢٦) انظر Jeremy Rifkin .

(٢٧)

Francis Fukuyama. The End of History and The last man. The Free Prees. New York, 1992.

لقي هذا الكتاب شهرة واسعة وتُرجم إلى عدة لغات من بينها العربية (ترجمة : حسين أحمد أمين – مؤسسة الأهرام) إلا أنه تلقى نقداً شديداً لمقولاته وحججه بالدوريات والمجلات العلمية العربية والأجنبية المعنية بشئون السياسة والاقتصاد والاجتماع . ولمزيد من التفاصيل حول أطروحة

هذا الكتاب ونقدها نقترح قراءة المقال التالي : "نهاية التاريخ" : مراجعة نقدية لمقولات فوكوياما، (مسعود ناصر) مجلة البحرين الثقافية .

(٢٨)

Richard J. Herrnstein and C. Murray . The Bell Curve : Intelligence and

(٢٩) للاطلاع على مضمون هذا الكتاب أنظر المقال التالي الذي نشر في مجلة البحث الفرنسية عدد يناير ١٩٩٧ وترجم إلى العربية . "السلالة : الجينات ونسبة الذكاء" ، مجلة الثقافة العالمية، العدد ٨٢، ١٩٩٧، (ص ص ٦٦-٨٣) . مقال بعنوان Race? It`s a myth , scientists say منشور بجريدة "Sun" التي تصدر في ماري ، الولايات المتحدة، ١٨ يوليو ١٩٩٨ .

(٣٠) ألفريد هوايتهد فيلسوف إنجليزي أسهم في تكوين المنطق الرياضي وفي فلسفة العلم . "ترى فلسفة الرياضيات أنها وإن تعاملت مع الكم العددي أو الهندسي إلا أنها لاتدعي أن نقطة البداية فيها هي المعطيات الحسية (Sense Data) وإنما يتعامل الرياضيون بواسطة ثوابت ومتغيرات لا تعتمد على ملاحظة الواقع التجريبي وإنما معطياتها إشارات ورموز (Symbols) . ثم ما لبثت العلوم الطبيعية المعاصرة أن استخدمت هذا المنهج الرياضي الذي يتعامل برموز ومجردات هي بمثابة اختزال للواقع التجريبي . إن النزعة الطبيعية التجريبية الموروثة عن القرن التاسع عشر لم تثمر كثيراً في مجال العلوم الإنسانية ، الأمر الذي جعل الاتجاه إلى البحث بمنهج جديد في نظرية العلم والمعرفة كان أساسه التصور الرمزي للمنطق والذي التقى بمشكلات جديدة في المعرفة الإنسانية . وكان أهم مانتهى إليه هذا الاتجاه الجديد في نظرية المعرفة هو اكتشاف أن الاستجابة الإنسانية (human response) ليست استجابة سلبية ،

ولكنها دائماً استجابة إنشائية (Constructive) ، لأن العقل لايتعامل مع الواقع الخارجي مباشرة ، بل يتعامل مع رموز من صنعه ، سواء كان ذلك في العلم أم في سائر الخبرات الأخرى العملية أو الوجدانية (نقلاً عن أميرة حلمي مطر ، كتاب فلسفة الجمال ، دار الثقافة ، ١٩٨٤ ، ص ص ٢٠١ - ٢٠٢) . يمكن أيضاً الحصول على معلومات عن فلسفه "ألفريد هوايتهد" بصفة عامة من الموسوعة الفلسفية لعبد الرحمن بدوي، الجزء الثاني ، عام ١٩٨٤، ص ٥٤٤ .

(٣١) كتاب Jeremy Rifkin ، ص ص٢٠٧-٢١٥ .

(٣٢) المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

(٣٣) مقال "الغرب .. نعم الغرب عنصري" ، لمصطفى عبد الغني ، جريدة الأهرام المصرية بتاريخ ١٩٩٨/٣/٢٣ .

obeikandl.com